في رحلته ورد عليهم رداً تفهم منه ان المسلمين كانوا من التسامح بحيث لا يطيلون يد الاذى حتى لما حرمه شرعهم

نقل ابن ابي أصيبعة ان الملوك من اليونانية وغيرها كانت تعلم أولادها الحكمة والفلسفة وتؤدبهم باصناف الآداب وتتخذ لهم بيوت الذهب المصورة باصناف الصور قال وانما جعلت الصور لارتياح القلوب اليها واشتياق النظر الى رؤيتها فان الصبيان يلازمون بيوت الصور للتأديب بسبب الصور التي فيها وكذلك نقشت اليهود هياكلها وصورت النصارى كنائسها وبيعها وزوق المسلمون مساجدهم

انحطاط الاخلاق

من البديهي ان للخلق عملاً كبيراً في الحياة الانسانية يظهر أثره على كل فرد من أفراد النوع والحكم في هذا ثابت بالاستقراء مؤيد بالبداهة لاحاجة بنا الى الفلسفة فيه واقامة الدليل عليه . وانما نريد ان نذكر من أثره في مجموع الامة ما أصيب به أهل المشرق من الانحطاط الناشئ عن ضعف الاخلاق وفساد ملكات العلم بوسائل الحياة الطيبة التي يتمتع بها أمم غيرهم

لاخلاف بين الباحثين في طبائع الامم المشتغلين بتقصي أحوال الاجتماع في ان المدنية وان كانت أثراً جميلا من آثار ترقي الشعوب وتخلص العقل من قيود التقليد وتخلصه من أسر البداوة الا انها مرتع خصيب لجراثيم الادواء المفضية الى انحطاط الامم التي تنمو بنمو الحضارة وتتربى في احضان المدنيـة . ومن ثم كانت المدنية أشبه بمرتفع ذي سلمين للصاعد والهابط

لا ينتهي صاعده في الصعود حتى يبدأ بالزوال ذلك لان الاستغراق في المدنية مدعاة للاستغراق في الملاذ بما يتوفر فيها من أسباب الراحة ودواعي الرفاهية وهما جلبة الفساد الذي يتخلل اعضاء المجتمع فاما ان يتمكن منه فيرديه واما ان يطاوله فيؤذيه

واكثر مايظهر ذلك الفساد في الامم العريقة في الحضارة البعيدة العهد بسلامة الفطرة حيث يتناهى بها الضعف الناشئ عن طول عهدها بالملاذ ويتولاها العجز عن مقاومة الفساد المتمكن في النفوس والاخلاق فتصير الى حالة من الانحطاط تشبه حالة المريض بمرض معد كل من خالطه سرت اليه عدواه

هذا شأن أمم الشرق التي توغلت في عصور المدنية منذ ابتدأ تاريخ الاجتماع البشري فكانت أقدم الشعوب عهداً بالتمدن لذا صارت الى ماصارت اليه من الانحطاط واهمال القيام على التربية الصحيحة التي تقاوم اعراض الضعف المتأتي عن الانغماس في المدنية والامعان في سبيل الرفاهية وصار الغرب مع ماتوفر فيه من أسباب الترف والحضارة أرسخ قدماً في المدنية وأبعد عن مكان الضعف لجدة مدنيته وقيامها على أصول التربية الصحيحة بما تسنى لاهلها من وجود بعض المخترعات النافعة كالمطابع التي أفادت الغربيين في تعميم العلم وتعليمه فوائد لاتحصى مع ان الطبع وجد قبل ذلك عند الصينيين من اهل المشرق ولم يستفيدوا منه ما استفاده الغربيون في رفع بنيان مدنيتهم على دعائم العلم الصحيح . ذلك لما قلناه من ان أمم المشرق الموغلة في الحضارة قد تولاها الضعف عن النهوض بما أفسد طول أيام حضارتها من أخلاقها منذ عصور بعيدة أو آلاف من السنين حتى صارت من ذلك

الى حال تشبه حال المريض الذي يعدي السليم . وليس فساد الاخلاق في المشرق بقريب عهد بل هو يتغلغل فيه من عهد طويل بدليل مانقل في التاريخ عن أحد قناصل رومية انه قال « إنا وان غلبنا الشرقيين وهزمناهم ودوخنا ممالكهم الا انهم ثأروا منا بأن تركوا لنا مع هذه الممالك أخلاقهم المنحطة »

وفي الحقيقة ان الرومانيين وان بلغوا من عزة الملك والسلطان باستيلائهم على المشرق مابلغوه الا انهم منذ وطئوا باقدامهم أرض المشرق خطوا الخطوة الأولى الى الانحطاط بما تسنى لهم فيه من وسائل الترف التي كانت متوفرة يومئذ عند الشرقيين فغلبت على نفوسهم الشهوات وحب الراحة والتنعم بنعيم أهل المشرق ففسدت فطرتهم البدوية التي مهدت لهم بسلامتها من شائبة الحضارة سبيل الغلبة على القرطاجيين والفرس وغيرهم والتسلط على الغرب والشرق حتى اذا خالطوا أمم المشرق التي كان لها حظ من الحضارة ولم يحتاطوا لانفسهم من آفات المدنية الشرقية التي تسممت بفساد الاخلاق سقطوا من حالق مجدهم ذلك السقوط المريع وغشيهم بعد ذلك من الضعف والذل ماذهب بدولتهم، ومحا من عالم الاجتماع اسمهم . وحسبك ان تعلم مبلغ انحطاط الاخلاق في دولة الرومانيين في المشرق من تعاليم عيسى عليه الصلاة والسلام التي ترمي الى الزهادة في نعيم الدنيا لتقف بالقوم عن الامعان في مذاهب الشهوات والاستسلام لمطالب النفوس الرائمة نحب الانطلاق عن كل قيد . وهذا شأن المشرق أيضاً مع من سبق من الرسل أصحاب الشرائع التي جاءت كلها لتقويم أود النفوس وإنما تنزل هذه الشرائع عند الحاجة كما هو معلوم بالضرورة فكأن المشرق لاستحكام الحضارة في أهله وتأصل فساد الاخلاق فيه لم تنقطع حاجته الى رسول أو شريعة تقوم منآد ساكنيه

وما أصاب الرومان من مخالطة الامم المتحضرة من سكان المشرق أصاب العرب أيضاً فهم وان كانوا من أهل المشرق غير أنهم من شعوب البدو التي نسيجت من تطرق الحضارة اليها بسياج واق من الصحاري الشاسعة التي تحيط بجزيرتهم حتى اذا بعث الله نبياً منهم بشريعة تدعو الى الخير وترمي الى تهذيب أخلاق الامم ونهضوا لنشر هذه الدعوة وتقدموا للفتح كان لهم من سلامة الفطرة وطهارة الاخلاق ممهد عظيم لبسط جناح السلطة على الممالك القديمة وفي جملتها بقايا مملكة الرومان الشرقية. ولما تمكن لهم السلطان في الارض واختلطوا بأهل الحضارة والترف من أمم المشرق غلبوا على أخلاقهم وأسرت عدوى الفساد اليهم لم يلبثوا إلا جيلا أو بعض جيل حتى أخلدوا الى الراحة ونسوا حظاً مما ذكروا به وحملوه من دعوة الخير والارشاد الى الأمم فانحطت أخلاقهم وزالت سطوتهم ، وذهبت مع الذاهبين دولتهم

يظن بعضهم ان ما منيت به مدنية الغرب لهذا العهد من فشو الفاحشة والتهتك بين أهلها هو نتيجة الايغال في الحضارة والنزوع الى الشهوات وأن فساد الاخلاق المؤذن بتلاشي الأمم إنما هو محصور بمثل هذه الرذائل الفاضحة وليس الامر كذلك اذ أن هذه الرذائل وإن كانت من نتائج الحضارة ولها أثر قبيح في المجتمعات المدنية فهي بعض من كل ما ندعوه فساد الاخلاق ونراه مظنة انحطاط المشرق وأهله . إذ من المعلوم ان الاخلاق الفاضلة واضدادها كثيرة جداً كالكرم والبخل، والعفة والشره ،والشجاعة والجبن، والصدق والكذب ، والامانة والخيانة الى غير ذلك من الملكات التي منها ما يكون بالفطرة ومنها ما يكتسب بالتربية وتولده في النفوس البيئة أو الوسط الذي يعيش فيه الانسان . وضرر الكذب مثلا إذا تفشى

يين توم أشد خطراً على حياتهم الاجتماعية من التهتك . لان الكذب آلة كبيرة من آلات الفساد تهدم ركناً عظيماً من أركان المدنية وهو الثقة التي هي روح التجارة والصناعة في كل عصر ومصر . وكذلك الجبن مثلا فانه اذا استحوذ على النفوس أضعفها وانتزع منها ملكة الاقدام على جلائل الاعمال وحرم أربابها ثمرة الاعتماد على النفس والمجاهدة في سبيل الحياة. وهكذا يقال في كل خلق من الاخلاق الفاسدة كما يقال بالعكس في الاخلاق الفاضلة . ومن اطلق على الشرق نظر المتأمل ورأى مانفشى بين أقوامه من ضعف النفوس ، ووهن العزائم ، وفقد الثقة والامانة ، والنميمة ، والرياء ، والكبرياء الباطلة ، والعيشة الخاملة ، والرضا بالقديم ، ومعاداة العلم وغير ذلك من الاخلاق السافلة التي قضت بالشقاء على المشرق واهله علم ان ما اصاب مدنية المغرب من الاستهتار وشيوع الفاحشة ليس بشيء في جانب مايرى ثمت من الثقة المتبادلة ، والامانة في المعاملة ، والاعتماد على النفس في معترك الحياة ، والنزوع الى المزيد من القوة والعلم والثروة . وحب الحرية ، والصدق في العمل والقول ، والبعد عن المداهنة والرياء ، خصوصا للقادة والزعماء ، وغير ذلك من الاخلاق العالية التي أصبحت سياجاً للمدنية الغربية يقيها سرعة السقوط فيما سقطت فيه المدنية الشرقية من الضعف والفساد

ورب قائل يقول إن من المحال اذن تخلص الشرقيين من حبائل الانحطاط في الاخلاق واستئصالهم لمرض الضعف الذي نما فيهم بمرور الاجيال ، نمو المرض القتال . والجواب عن هذا ان المحال ، في الممكنات محال . واذا نهض اهل المشرق للافاة مافات ، والنظر فيما هو آت ، وانتهجوا سبيل الاناة

والتعقل ، وكان لهم من القادة ما كان لاخوانهم اليابانيين فليس من المحال حصولهم على مدنية فاضلة تضاهي مدنية المغرب لهذا العهد . ولنا بهذا الصدد كلام آخر نرجئه لفرصة أخرى ان شاء الله

القاهرة رفيق العظم

الكتب والجراثيم

العاقل يأخذ من كل كلام أطيبه ومن كل نصيحة انفعها فلو أراد مثلا ان يعمل بجميع مايشير به علماء البكتريولوجيا ويعتقد بفعل الجراثيم اعتقادهم بها لانقطعت يده عن العمل ولسانه عن الاكل وانفه عن الشم وجسمه عن الحركة ولكن الحكيم يأخذ الكلام ويزنه بميزان الانصاف ويقلبه على محك البصيرة فلا يقبله أو يقبل منه الا بعد عرضه على فيصل العقل ومحكم التجارب

ارتأى أحد نطس أطباء الفرنسيس مؤخراً ان أحسن واق للمرء من الجراثيم ان يطالع من الكتب ماصدر من المطابع حديثاً ويقطع أوراقها بقطع من العاج اذ قد ثبت بالفحص البكتريولوجي ان في الكتاب الحديث قليلا من الجراثيم التي لاتضر ولكن في دفات الكتب وتحت مغابن أوراقها التي تتداولها الايدي كثيراً كاسفار المكاتب وغرف القراءة الوفاً من الجراثيم القتالة يتجلى ذلك بالعين المجردة لمن يحدق فيها وفي كل سطح مربع من أمثال هذه الكتب ٤٣ جرثومة فيتكون من كتاب مؤلف من ثلثمائة الى اربعمائة صفحة عدد مدهش من الجراثيم . وليست كل هذه الجراثيم مما يضر ويؤذي على رأي علماء البكتريولوجيا بل ان معظمها من